هل كلمة البربر شرقية عربية؟

الدكتور/ محمد المختار العرباوي
(تونس)

من الكلمات ذات الشأن في تاريخ منطقتنا المغربية كلمة "البربر" وقد اكتسبت قيمتها التاريخية منذ مجيء العرب المسلمين حيث صارت منذ ذلك الزمن علمًا مميّزا يطلقه الناس جميعا على سكان شمال إفريقيا.

ورغم أهمّيتها وسعة مدلولها فليس لها أيّ مضمون عرقي مثل ما لبعض الكلمات الأخرى كالفرس والترك والأكراد. والجهة التي حاولت أن تجعل لهذه الكلمة مدلولا يشبه المدلول العرقي، هي المدرسة التاريخية الاستعمارية التي سعت من وراء أعمالها الثقافية إلى بثّ التفرقة وزرع روح الانقسام في أبناء المنطقة، وما تزال تأثيرات هذه المدرسة معشّشة في عدد من المثقّفين من سياسيين وجامعيين وصحافيين وحقوقيين ورجال تعليم تغذّي فيهم روح الإقليمية والعداء للقضايا الوطنية والجماهيرية كالوحدة والتعريب وغير ذلك.

هذه الكلمة ذات الأهمية التاريخية فمن أين مأتاها ؟ من الشرق أم من الغرب ؟

الشائع عن كتاب الغرب أنها مشتقّة من الكلمة اللاتينية Barba rus التي كانت تطلق على الأجانب والشعوب الأقلّ حضارة والتي ما تزال في حالة من البدائية والتوحّش مثل جرمانيا وغاليا القديمتين، وأن الرومان كانوا ينعتون بها

سكان المغرب العربي في القديم بصفتهم همجا لم يرقوا بعد إلى درجة من النضج والانضباط الاجتماعي.

وحسب هذه المصادر فإن كلمة (Barba rus) لاتينية الأصل.

ولكن مصادر أخرى تؤكّد أنّ أصلها إغريقي(1) وأن جذرها الذي تنتمي إليه في اليونانية القديمة هو كلمة (Var var) وهي على هذه الصورة (Bàpbapoc) وتنطق vàrvaros (فرفروس).

وكان اليونان يطلقون كلمة (بربار) على كل الشعوب الأجنبية غير الهيلينية في مستوى اللغة والدين ونظام الحكم، وبصفة خاصّة على الميديين والفرس بل وحتى على الرومان في فترة لاحقة، ومن معانيها أيضا عندهم أنّها تطلق :

1. على اللغة الغامضة غير المفهومة
2. وعلى غير المتحضّر والفظّ والخشن والطاغية

فالثابت أن الإغريقيين القدماء لم يستعملوا مطلقًا هذه الكلمة بصفتها علمًا على الشعب المغربي في ذلك التاريخ بل استعملوا أسماء أخرى منها (لوبيا) كما هو معروف.

وعن الإغريق أخذ الرومان هذه الكلمة فأطلقوها أولا على سائر الشعوب والطوائف التي ليست يونانية ولا إيطالية. ثمّ ضيّق في مدلولها نسبيا تمشّيا مع سياسة الإدماج والرومنة، فصارت لا تطلق على من نال من الأفراد والجماعات الأجنبية حقوق المواطنة الرومانية، ومن الكلمات المستعملة في العهد الإمبراطوري "بربار يكوم"(2) أي بلاد البربر. كما أن الرمان كانوا يصفون السكّان المهادنين لهم والقاطنين بإحدى الولايات الرومانية بكلمة "بربار يسيني" وتعني (البرابرة) اللطفاء أي المرضيّ عنهم سياسيًا"(3).

وكما لاحظنا بالنسبة لاستعمال كلمة (بربار) في اليونانية وكذلك في اللاتينية، وسواء أطلقت على من هم في حالة من البدائية والتوحّش أم على مطلق الطوائف الأجنبية، فإنّها لم تتّخذ أبدا علما على سكّان المغرب العربي القديم.

ويتأكّد هذا من أن الرومان إبّان احتلالهم لهذه المنطقة الذي دام قرابة ستة قرون (146 ق.م – 430م) لم تتسمّ في عهدهم إلاّ بحسب التقسيمات الإدارية السياسية(*) وبعض التسميات الأخرى العارضة، وكذلك الشأن في العهد البيزنطي (533 – 642م).

والجدير بالذكر هو أن كلمة (بربر) وردت في الفارسية أيضا، وقد جاءت فيها بمعنى التطابق والمماثلة(4) وبمعانٍ أخرى.

ووجود كلمة (بربر) في اليونانية القديمة وفي اللاتينية والفارسية دليل على انتشارها انتشارا واسعا خارج البيئة العربية، وهذا يستدعي البحث في الواقع اللغوي والثقافي لهذه البيئة لمعرفة أصل هذه الكلمة ومدلولاتها.

أولا – الانتشار الجغرافي لكلمة "بربر" :

المعلومات المتوفّرة حول هذه الكلمة من الناحية الجغرافية، تبيّن أنّها منتشرة في جنوب الجزيرة العربية وما جاورها من المناطق الإفريقية من الصومال حتّى مصر وبلاد الشام كما تدلّ على ذلك أسماء الأماكن التالية :

(*) خضع التقسيم الإداري لأطوار ظروف الاحتلال، وانتهى عموما على النحو التالي :

- إفريقية (القطر التونسي تقريبا)
- نوميديا (الجزائر الشرقية)
- موريطانيا القيصرية (الجزائر الغربية عاصمتها شرشال)
- موريطانيا الطنجية (المغرب وعاصمتها طنجة).
-

- بَرْبَرَة :

بلاد بين الحبشة والزنج تقع على ساحل البحر المتّصل باليمن، ذكرها المسعودي(5) والهمداني وعنه أخذ الحموي(6).

وتقول دائرة المعارف الإسلامية إن اسم هذه البلاد مأخوذ من اسم أهلها الذين يطلقون عليهم بربرا وبرابر(7).

وعندما تحدّث ابن بطوطة عن زيارته لمدينة (زيلع) بالسودان ذكر أنّها "مدينة البرابرة وهم طائفة من السودان شافعية المذهب وبلادهم صحراء مسيرة شهرين أوّلها (زيلع) وآخرها مقديشو"(8).

ويضيف "وسلطان مقديشو كما ذكرنا إنّما يقولون له الشيخ واسمه أبو بكر وهو في الأصل من البرابرة وكلامه بالمقديشو ويعرف اللسان العربي"(9).

وما ذكره ابن بطوطة يتطابق تقريبا مع ما ذكرته المصادر الأخرى، وإنّ حديثه عن أهل هذه المنطقة بأنّهم برابرة، دليل على ما أدركه من أوجه شبه بينهم وبين البربر ببلاد المغرب، وكون كلامهم بالمقديشو، يعني أنهم يتكلّمون بلهجة معيّنة لها من الاختلاف ما للمزابية، والقبائلية والشاوية والشلحية وغير ذلك. فهي من حيث الانتماء العامّ بربرية الأصل، وفي كلام صاحب القاموس ما يشير إلى ذلك إذ يقول :"وبربر جيل من البرابرة وهم بالمغرب وأمّة أخرى بين الحبوش والزنج"(10).

- بَحْرُ بَرْبَرَة :

تذكره دائرة المعارف الإسلامية بهذا الاسم(11) ويسمّيه المسعودي "الخليج البربري"(12) وهو خليج عدن وسمّي بذلك لاتّصاله ببلاد بربرة "والعمانيون

... إذا توسّطوا هذا البحر ودخلوا بين ما ذكرناه من الأمواج ترفعهم وتخفضهم فيرتجزون ويقولون(13).

بربري وجفوني وموجك المجنون

جفوني وبربري وموجها كما ترى

- بَرْبَـرٌ :

مدينة في الصومال، كانت بمثابة العاصمة في عهد الانجليز تقع على الخليج البربري أو خليج عدن.

- جزيرة بَرْبَرَى :

ضبط نطقها وكتابتها أبو عبيد البكري(14) وهو يعتبرها جزيرة في بلاد الحبشة، ذكرها الهمداني(15) وعنه أخذ الحموي ومن حيث الموقع الجغرافي "قاطعه من حدّ سواحل اليمن ملتحقة في البحر بعدن"(16) وهذه الجزيرة عرفت أيضا في القديم بـ(سُقُطرة) وما تزال تعرف بهذا الاسم إلى اليوم، وبها لهجة من بقايا لهجات جنوب الجزيرة العربية القديمة معروفة أيضا بهذا الاسم (السقطرية).

- بَرْبَرٌ :

إقليم قِبْليّ بإحدى مديريات السودان مشهور بكثرة (شجرة الدوم). وهو شجر المُقْل – وقاعدته تسمّى أيضا (بربر) وهذا الإقليم كان يطلق على الناحية التي كانت تقطنها قبيلة (ميرفات) وهي قبيلة عربية اللهجة على ضفتي النيل من الشلال الخامس إلى بلاد عطبراء ومعظمهم في بلاد النوبة والصومال"(17).

- وادي البَرْبَر :

يوجد بإحدى نواحي النيل، ذكره علال الفاسي حيث قال : "ومن المعروف أنّه يوجد في شعب النيل وادٍ يسمّى بوادي البربر"(18).

- سوق بَرْبَر :

وهي سوق كانت توجد بالفسطاط بمصر(19)

- **جبل بربر** : يوجد بهذا الاسم في أعالي نجران باليمن وفي أواسط جبل الشيخ وفي سلسلة جبال تدمر بسوريا (بلاد الشام) (20)

ومن الملاحظ أن ورود هذه المجموعة من الأسماء في جنوب الجزيرة العربية وفي المناطق الإفريقية الواقعة غربها وفي مصر والشام دليل على أنّ واقعا بشريا كان منتشرا في هذه المناطق يطلق عليه : البربر أو البرابرة، ولذلك سمّيت بعض المناطق والأماكن باسمهم.

وهذا الواقع البشري هو الذي جعل، رينان الفرنسي يقول :

"إنّ عائلة من الشعوب الناطقة بالبربرية كانت تمتدّ من مصر وحتى من البحر الأحمر إلى السينيغال، ومن المتوسّط إلى النيجيريا""(21).

والعلاقة بين المكان ومن يحلّ به من الجماعات البشرية مكينة – كما هو معروف– ولذا سمّيت عشائر وقبائل كثيرة بأسماء الأماكن التي تحلّ بها وكذلك العكس فهناك على سبيل المثال :

بَهْرَاء : فهي اسم قبيلة ولموضع.

تباله : اسم لقبيلة ولموضع.

وهذا الارتباط بين الواقع الجغرافي ومن يعيشون عليه دليل قاطع على عراقة كلمة (بربر) وعلى أنّها نبتة شرقية صميمة.

ثانيا – كلمة "بربر" في الحقل اللغوي :

من اللاّفت للنظر ـ ونحن نتصفّح كتب اللّغة من معاجم وغيرها ـ أنّ هذه الكلمة كانت في القديم مستعملة استعمالاً واسعا ولها دلالات كثيرة، ولنا في الحوصلة التالية خير دليل على ذلك

بَرْبَـرَ :

بصيغة الفعل، يقال (بَرْبَرَ التيس للهياج : نبّ)(22) ونبّ أي صاح عند الهياج وفي عاميتنا التونسية نقول : لَبْلَبْ.

ويقال : (بربر في كلامه بربرة إذا أكثر)(23) ويقال (بربر الرجل إذا هذي، فهو بربار)(24) أي تكلّم بشكل بدا معه كما لو كان يهذي، ومن هذا القبيل حديث أُحُد "فأخذ اللواء غلام أسود فنصبه وبَرْبَرَ "(25) وكذلك قولهم : "بربر فهو بربار مثل ثرثر فهو ثرثار"(26).

وذكر حسن الوزان أنّ بعضهم يرى أنّ (الفعل العربي بَرْبَرَ بمعنى همس) ومنه اشتقّت كلمة البربر لكون "اللهجة الإفريقية كانت عند العرب بمثابة أصوات الحيوانات العجماوات"(27).

تَبَرْبـرَ :

فعل رباعي مزيد، ورد بمعنى كثر وازداد، ويستخلص هذا من النصّ المتعلّق بقدوم وفد برابرة لواته على عمر بن الخطاب. جاء فيه أنّ بربر بن قيس "خرج إلى البراري فكثر نسله وولده، فكانت العرب تقول تبربروا أي كثروا"(28).

ومن معانيها التوغّل في البراري والتوّحش فيقال:"تبربر: لحق بالقوم فتوحّش" [29].

ونجد هذين المعنيين في الفعل الثلاثي المزيد، فمن ذلك قولهم : "أبر الرجل كثر ولده" و"أبرّ القوم كثروا"(30).

وجاء في القاموس المحيط : "أبرّ : ركب البرّ وكثر ولده والقوم كثروا وعليهم غلبهم"(31).

ومن ذلك أيضا قولهم : "برّبرّ أي توحّش في البراري فسمّوا بربرا"(32).

وذكر حسن الوزان أن البعض يرى "أن بربر مكرور "البرّ" الذي هو الصحراء باللغة العربية"(33) ويورد قصّة افريقش التقليدية نقتطف منها : "ولمّا وجد نفسه مطاردا عاجزا عن مقاومة العدو، استشار قومه في أيّ سبيل يسلكونه للنجاة فأجابوه صارخين : "البربر" أي الصحراء"(34).

وسواء أكان الفعل هنا ثلاثيا مضعفا مكررا أم رباعيا مجردا، فهما سيان من حيث المعني، ونلاحظ في المعاني الواردة أن هناك ترابطا بين التوغّل في البراري وتكاثر النسل وهذا شكل من أشكال التوزع البشري في المراحل القديمة ما تزال الكلمات المحتفظ بها في المعاجم تشير إليه.

بَرْبَـرٌ :

اسم لشخص : نجده متداولاً لدى النسّابين والإخباريين، وبقطع النظر عن صحّة معلوماتهم أو بطلانها فإنّ ذلك لا ينفي وجود هذا الاسم في الثقافة العربية القديمة وفي القبائل الكنعانية وغيرها.

البَرْبَرَة :

مصدر قياسي وردت بهذه المعاني :

- "الصوت وكلام في غضب"(35)
- كثرة الكلام والجلبة باللسان – قيل الصياح"(36)
- التخليط في الكلام مع غضب ونفور"(37)

ومن هذا القبيل حديث علي بن أبي طالب "ولمّا طلب إليه أهل الطائف أن يكتب لهم الأمان على تحليل الزنا والخمر فامتنع :"قاموا ولهم تغذمر وبربرة"(38) والتغذمر هنا : الغضب واختلاط الكلام.

- "صوت المَاعز" (39)

البَربار والبِرْبَار : سواء باعتباره اسما أم مصدرا للمضعف فيقال :

- رجل بربار إذا كان كثير الكلام والجلبة باللسان (40)

"دلوٌبربار : لها صوت" وفي تاج العروس "دلوٌبربار لها في الماء بربرة أي صوت في الماء"(41) ومنه هذا البيت الذي ينسب لرؤبه :

أوري ببربارين في العظمات إفراغ ثجاجين في الأغواط

- البَربار ... الأسد لبربرته وجلبته ونفوره وغضبه"(42)
- المُبربر : بصيغة اسم الفاعل : الأسد

وفي القاموس (البَربار والمبربر : الأسد)(43)

- البُرْبُر : (بالضم الكثير الأصوات، وبالكسر دعاء الغنم)(44)
- البربري : الياء للنسبة : قال الفراء : (البربري : الكثير الكلام بلا منفعة بربر في كلامه بربرة إذا أكثر)(45) ولهذا علاقة بمعنى الثرثرة السالفة الذكر.

- البَرْبَرُ – البَرَابِرَة : اسم لجيل من الناس، يطلق على المجموعات التالية.

1- بَرْبَرُ بلاد المغرب العربي الذين عرفوا أكثر من غيرهم بهذا الاسم.

2. المجموعة التي تحدّث عنها القدامى والتي كانت موجودة على حدّ تعبير صاحب القاموس (بين الحبوش والزنج)(46). ويعتبرها وبربر بلاد المغرب من نسل واحد ينحدر من ولد قيس بن عيلان، وذكر ابن بطوطة هذه المجموعة على أنّها "طائفة من السودان شافعية المذهب وبلادهم صحراء مسيرة شهرين(47)

3. المجموعة الموجودة في العراق وهي "بطن من (الدغمان) من (الروله) من (مسلم) من (عنزة) أكبر قبائل العرب في وقتنا الحاضر"(48) وتسمّى (البرابرة) (49).

ومن الطريف أن أشير أنّ (الروله) بطن من (جلاس) وهذه فرع من (قبائل مسلم) العربية(50). وبهذا نعرف أن اسم قبيلة (جلاص) عندنا في تونس هو أيضا اسم عربي بقطع النظر عن النطق الذي يغلّب الصاد هنا والسين هنالك.

ويقال للجماعة (برابر) و(برابرة) والهاء هنا للنسبة، ويمكن الاستغناء عنها ولا داعي لاعتبارها للعجمة طالما أنّ قضية العجمة في مثل هذا الموضوع لا قيمة لها.

* * *

ماذا نستخلص من هذا الزخم في الاستعمال اللغوي المتنوّع لمادّة (بربر)؟ إنّه دليل قاطع على أصالتها وعلى أنّها نابعة من صميم البيئة الثقافية العربية. وهو ما يجعلنا نلاحظ أنّ العربية و إنْ كانت تفتقر إلى معجم تاريخي لمفرداتها إلاّ أنّ غالبية ما تمتلكه منها قديم. إذ تشترك فيه مع اللهجات/ اللّغات العربية القديمة

المندثرة كالأكادية والكنعانية والآرامية وغيرها، ومن بين هذه المفردات كلمة (بربر) والدليل على قدمها :

1. استعمالها استعمالا واسعا في أغراض شتّى.

2. المستوى الحضاري الذي تنتسب إليه مجموع الكلمات السابقة باعتبارها جزءا من واقعه اللغوي والثقافي معبّرة عن بعض الجوانب فيه.

وواضح من دلالة هذه الكلمات ومن معطياتها الثقافية أنّها تنتمي إلى مجتمع بدوي – قَبَلِيّ. كما تدلّ على ذلك أشياؤه المادّية : تيس – دلو – أسد، وهو ما يعكس جانبا من طباع هذا المجتمع وسلوكه العامّ من مثل ما عرف به من تصرّف تغلب عليه الجلبة واللغط والغضب، يضاف إلى هذا أن كلمة (بربر) تجمع في أحد معانيها بين التوغّل في البراري أي الصحاري وبين تكاثر النسل.

3. الترابط اللّغوي – اللّفظي : وهو ترابط معروف في العربية وخاصّة في الفعل المضاعف، حيث تنشأ في مستوى اللفظ (والمعنى أحيانا) كلمات من كلمات أخرى فمن صلّ، عجّ، رقّ، حثّ مثلاً نشأت صَلْصَلَ، عَجْعَجَ، رَقْرَقَ، حَثْحَثَ، ويسمّيها الصرفيون رباعيًا مضاعفا مجرّدا.

ويعتبر أبو إسحاق الزجاج هذا النوع من الأفعال المكررة الفاء واللام وما يماثلها من مثل : قَرِق وقَرْقَر وسلِس وسَلْسَلَ، وقَلِقَ، وقَلْقَلَ من أصل ثلاثي ووزنها الصرفي (فعلل)(51).

ومن هذا القبيل "تَكَمْكَمَ من الكُمَّة" وكذلك "عين ثرّة وثرثارة"[*](52).

وهذا الباب من تداخل الأصول في اللغة يعتبره ابن جنّي من قبيل "تزاحم

[*] **الكُمّة** : القُلُنْسُوَّة المدوّرة – وتَكَمْكَمَ : لبسها – الثرّة والثرثارة : الغزيرة النبع.

الرباعي مع الثلاثي (53).

ويندرج ضمن هذه الأفعال فعل (برّ) الذي هو من الأفعال العربية القديمة، ومنه نشأت كلمة (بربر) المرتبطة به لفظا ومعنى أيضا كما في قولنا "أبرّ : ركب البرّ" وأبرّ القوم وتبربروا : أي كثروا وزادوا (أبرّ : مزيد ثلاثي – تبربروا : مزيد رباعي) فالكلمتان (برّ) و(بربر) هما أيضا متزاحمتان وتدخلان ضمن قواعد الخلق اللغويّ ومنطقه الخاصّ.

وهكذا وفي كلّ ما تقدّم نجد فعلا ما يقطع بأنّ كلمة (بربر) من صلب البيئة العربية الصحراوية القديمة ومن إنتاجها الثقافي بكل تأكيد ولذا وجدناها شائعة في أقوال الجاهلين وأشعارهم من ذلك قول أمرئ القيس[54].

على لا حب لا يتهدي بمناره إذا سافهُ العَوْدُ النباطيُّ جَرْجَرَا(*)
على كلّ مقصوص الذُّنابي معاودٍ بريد السرى بالليل من خيل بربرا

وقول علقمة بن ذي جدن[55]

ولميس كانت في ذؤابة ناعط يجبي إليها الخرج صاحب بربر(**)

(*) **اللاحب** : الطريق الواضح الذي لحته الحوافر فصار طريقا واضحا ولا حب بمعنى ملحوب.
سافه : شمّه
العود : الجمل المسن – والنباطي : المنسوب إلى النبط وهو الفخم
جرجر : رغا وضجّ وعرف أنه غير مسلوك إذ لم يجد في ترابه أثرا لأبوال الدواب.
مقصوص الذناب : محذوف الذنب أي معاود لسير البريد حيث أنه اعتاد وألفه
خيل بربر : الأجود والأكثر صلابة.

(**) **ذؤابة** : هنا أعلى الشيء – ناعط : جبل باليمن به حصن يقال له ناعط – بربر : اسم جهة.

وقول مرداس بن أبي عامر [56]

تداعت علي بنو بكر كأنها تداعت عليّ بالأحزّة بربرُ(***)

وقول عدي بن زيد العبادي[57]

ويومًا ينادون آل بربر واليكسوم لا يُفْلَحَنَّ هاربها

وأورد الهمداني قصيدة لبعض آل سعد بن ملك يكرب تبع يذكر فيها منازل من خرج من اليمن إلى سائر أنحاء الجزيرة العربية وغيرها[58]

ومن منّا بأرض الغرب جند تعلّقوا إلى بربر حتى أتوا أرض بربر

ثالثا – إطلاق كلمة (بربر) على جيل من الناس :

وإلى هنا يمكن للمرء أن يتساءل عن الأسباب التي أدّت إلى إطلاق لفظة "البربر" على جيل من الناس منذ زمن بعيد وهل لذلك علاقة بما لهذه الكلمة من مدلولات لغوية متنوّعة ؟

النسّابون والمؤرّخون تناولوا هذا الموضوع، وقالوا في تعليلاتهم إنّ البربر سمّوا (بربرا) :

1. لأنه قيل لهم :"ما أكثر بربرتكم"[59] والبربرة هنا تعني الجلبة والرطانة واختلاط الأصوات، ومنه قول بعضهم :

(***) **الأحزّة** : جمع حزيز وهو ما غلظ من الأرض وانقاد (طال). بربر : جيل من الناس.

بربرت كنعان لمّـا سقتهـا من أرض الهلك للعيش العجب

وهذا أيضا ما عبّر عنه مالك بن المراحل في قوله : لكثرة كلامهم ولأنّهم قبائل شتّى، وعندما تلاقوا بالشام لغطوا (60)

2- لكثرة نسلهم [61]

3- لتوغّلهم في البراري : وأنّ البربر (مكرور البرّ الذي هو الصحراء) [62].

والواضح من هذه التعليلات أنها مرتكزة كلّها على المعاني اللغوية. ونستخلص منها ومن كلّ ما تقدم أنّ هناك تفسيرين للتسمية بكلمة "البربر"، وهما تفسيران ليسا متباعدين ولا تناقض بينهما.

الأوّل: أساسه لغوي وقد اعتمده أصحابه بناء على طبيعة اللغة البربرية من حيث الأداء والتواصل مع الآخرين. فهذه الجماعة- كما هو معروف- تتكلّم لهجات مشوبة بالغموض والصعوبة في النطق. ووصف طريقة أدائها بـ"البربرة" التي تعني كما تقدم "الجلبة والرطانة واختلاط الأصوات" وهو ما جعل ابن خلدون يصف لغتهم بقوله :

"ولغتهم من الرطانة والأعجمية متميّزة بنوعها، وهي التي اختصّوا من أجلها بهذا الاسم"[63] وأضاف "البربرة بلسان العرب هي اختلاط الأصوات غير المفهومة، منه يقال بربر الأسد إذ زأر بأصوات غير مفهومة"[64].

ونجد عند محمد الفاسي ما يشبه هذا الرأي إذ قال :"وقد أطلق عليهم العرب اسم بربر"[65] وأردف أنّ العرب عند مجيئهم "وجدوا شعوبا تتكلّم لغة غير معروفة عندهم فقالوا عنهم إنّهم يبربرون أي يكثرون الكلام بلا معنى، وقالوا

عنهم يهدرون أي يخرجون أصواتا بدون معنى، وقد كثر استعمال هذا اللفظ (الهدرة) في اللغة العامية المغربية بمعنى تكلّم"[66].

والناطقون بالعربية الفصحى كانوا يعتبرون كلام غيرهم كلاما أعجميا حتّى ولو كانوا عربا مثلهم، ولذا وصفوا لغة حمير العربية الأصل بأنّها لغة "طُمْطُمانية"[67]. أي ذات عجمة، وهناك فروع كثيرة ومناطق متعدّدة وصف ساكنوها بأنّهم "ليسوا بفصحاء[68] ووصفت لغة البعض الآخر بأنّها "وسط و إلى اللّكنة أقرب"[69] أو بأنّ أصحابها "من متوسّط بين الفصاحة واللّكنة"[70] ووصف الهمداني لغة مناطق عديدة بالغتم (وهي العجمة في النطق وعدم الإفصاح) وقال عن (مَهْره) بأنّهم "غُتْمٌ يشاكلون العجم"[71] وهناك من "في لغتهم تعقيد"[72] وهي حالات أخرى تقلّ فيها الفصاحة بدرجات متفاوتة. وكانت (قضاعة) تغمغم في كلامها، ولذا وصف اللغويون أداءها بالغمغمة.

وإذا كان هذا شأن الناطقين بالفصحى مع الحميرية ولهجات جنوب الجزيرة العربية عامّة فلا غرابة حينئذ أن توصف لغة البربر بالبربرة للسبب نفسه ففيها ما في الحميرية واللهجات الجنوبية من لكنة وغُتْم وتعقيد إذ هي كلّها تنتمي إلى واقع لغوي غير متطوّر لقدمه. وابن خلدون وضّح لنا هذا وبيّن سبب التسمية بالاستناد إلى المعنى اللّغوي أي أن البربر سمّوا بذلك لما في لغتهم من عجمة، والعجمة هنا متأتية من اختلاط غير مفهوم في الأصوات ومن عمليات لغوية أخرى الأمر الذي يفضي إلى ما يشبه البربرة. وقال اللغوي والنحوي أبو عمرو، إسحاق الشيباني "أعجمت : أبهمت" وقال : "العَجَمِيُّ مبهم الكلام لا يُبيّن كلامه"[73].

والتعليلات التي قدّمها المؤرّخون والنسّابون اعتمادا على المدلول اللّغوي تنسجم مع حقائق الواقع وتطوّر الأوضاع في الجزيرة العربية قديما، فالتنوّع اللّغوي الكبير الذي عرفت به منذ ما قبل الميلاد بزمن طويل. سببه انقسام

القبائل وتوزّعها بالتوالي إلى فصائل كثيرة وعيشها بعيدا عن بعضها بحكم العزلة والهجرة إلى أماكن نائية، وهذا من شأنه أن يؤدّي إلى الاختلافات اللّغوية وبروز لهجات جديدة تكون بالطبع غير مفهومة بالنسبة لغير المتكلّمين بها. وهذا ما أشارت إليه (تماضر) عندما قالت في أخيها برّ بن قيس على حدّ زعم بعض الإخباريين الذين يعدّونه جدّ البربر[74].

وشطّت ببرّ داره عن بلادنا وطوّح برّ نفسه حيث يمّما

وأزرت ببرّ لكنة أعجمية وما كان برّ في الحجاز بأعجما

هذا التفسير اللغوي لسبب التسمية بكلمة البربر و إن كان له ما يبرره من حيث المعاني اللغوية التي اكتسبتها في البيئة البدوية للجزيرة العربية إلاّ أنّه ليس دقيقا ولا معبّرا عن السبب الحقيقي والأصلي لهذه التسمية. وهذا ما نستخلصه من الحميرية واللهجات الجنوبية التي وصفت بما وصفت به البربرية من رطانة وعجمة وغموض في الأصوات، ومع ذلك فلم يطلق على الناطقين بها لفظة "البربر". وهذا يعني أنّ هناك سببا آخر وهو ما يتعيّن علينا البحث عنه وتحديده. فكلمة "بربر" متولّدة من الجذر (بر) الذي هو الأصل والأقدم. فمعرفة الملابسات المحيطة به هي التي ستوضح هذه المسألة وهو ما تضمّنه التفسير الثاني.

الثاني: ارتبط بهذه الكلمات:

- البرّ (بفتح الباء)، البراري: الصحراء، الصحاري
- أبرّ القوم: ركبوا البرّ وتوغلوا فيه
- بربر القوم: توغلوا في البراري، الصحاري

هذا التوغل في البراري الذي اتسمت به الحياة في الجزيرة العربية وسار

ظاهرة اجتماعية بدوية عامة سببه التحوّلات المناخية العالمية التي جعلت الجزرة العربية تعاني من الجفاف والذي بدأت وطأته تشتدّ منذ الألف السادس قبل الميلاد والذي تفاقم أمره في الألف الموالي (الخامس) ممّا أدّى إلى التوسع في الحقول الرملية وإلى التناقص في كميات الأمطار وإلى النضوب في الينابيع والأنهار وإلى انقراض العديد من النباتات.

هذا التحوّل المناخي القاسي دفع بالجماعات الموجودة إلى أن تجوب الجزيرة العربية وتتوغل في براريها وأرجائها بحثا عن الكلإ و مظانّ المياه بل أجبر العديد منها على مغادرة الموطن الأصلي إلى مواطن أخرى جديدة.

وظاهرة التوغل هذه وما صحبها من توزع بشري لابدّ أن يؤدّي على المستوى اللغوي إلى ولادة معاني جديدة وصيغ وألفاظ جديدة. وهذا ما حصل فعلا في كلمة "برّ" التي تعني الأرض، الصحراء، وهو المعنى الأصلي القديم لهذا الجذر. ومنه تولدت كلمة "بربر" التي من معانيها التوغل في البرّ، في البراري، في الصحراء، في الصحاري. وهو ما يعني في مفاهيمنا الحالية: النزوح والهجرة والاغتراب. فبربر القوم : هاجروا. والهجرة هي توغّل في البراري والانتقال من موطن إلى آخر. ومن هنا فإنّ لفظة "البربر" تعني المهاجرين. وبهذا يتضح لنا سبب تسمية جيل من الناس بـ"البربر" وهي تسمية أصيلة وتاريخية وهامة لعلاقة مدلولها اللغوي بما جدّ في الجزيرة العربية من تحوّلات بيئيّة واجتماعية كبيرة.

وهكذا نتوصّل إلى أن كلمة "البربر" وقع إطلاقها على جيل من الناس لصلتها الوثقى بالمدلول اللغوي الأصلي وبواقع الجزيرة العربية والتحولات التي جدّت به. وأنّ المؤرّخين المسلمين هم الذين أشاعوها على نطاق واسع بصفتها عَلَمًا، **ومن هنا تتجلّى فجاجة الرأي الذي يقول بأنّ أصل هذه الكلمة يوناني أو لاتيني وهو رأي أشاعته المدرسة التاريخية الاستعمارية وتلقّفه الآخرون**

واقتنعوا به دونما تثبّت أو اطّلاع عمّا حوته مصادرنا من معلومات.

فلو كان زعم هذه المدرسة صحيحا لما أهمله المؤرّخون على كثرتهم وتنوّع مشاربهم. وكان الواجب يقتضي أن تبحث هذه الكلمة في المصادر العربية من تاريخية ولغوية وغيرهما وأن يقارن ذلك بما في اليونانية واللاتينية، وعندها يكون للحكم معنى وللرأي المتّخذ قيمة، لكن ما وجدناه بكل أسف هو الإعراض التامّ على القيام بذلك البحث، ولا نعرف أحدا قام به وما هذا الإعراض إلاّ جزء من ذلك الإعراض الذي غرسته المدرسة التاريخية الاستعمارية وغيرها من الوسائل الأخرى تجاه قضايانا وتراثنا وكل ما هو عربي عامّة.

والغريب في الأمر أن ابن خلدون كان واضحا في هذه المسألة إلاّ أن رأيه قوبل بالإهمال، و إذا كان له ما يبرّره بالنسبة للمدرسة التاريخية الاستعمارية فما هو المبرّر بالنسبة لغيرهم وخاصّة أبناء المنطقة ؟

لقد ذكر ابن خلدون بأن أصل تسمية البربر راجع إلى ما في لغتهم من رطانة وعجمة ولذا قال "وهي التي اختصّوا من أجلها بهذا الاسم" وهذه هي البربرة بعينها التي قال عنها "وهي اختلاط الأصوات غير المفهومة".

وما نلاحظه في هذا السياق هو أنّ كلمة "بربر" لم ترد في العربية بمعنى الهمجية والامتهان الجنسي والعنصري، ولذلك استعملت من الجميع ومن البربر أنفسهم، فلو كان فيها شيء من تلك المعاني لاستُنكف من استعمالها ولعزف عن ذكرها الكثير من المؤرّخين والعلماء، إن هذه المعاني نجدها فقط في لفظة "بربار Barbarud" اليونانية واللاتينية.

و إذا كانت كلمة (بربر) عربية لحما ودما فبماذا نعلّل وجودها في اليونانية واللاتينية (التي أخذتها عن اليونانية) والفارسية ؟

من المعلوم أن كلمات كثيرة تتشابه في بعض اللّغات وأنّ هذا التشابه ينشأ بينها اتّفاقا، ولكن في ما يخصّ كلمة (بربر) فقد أخذت بكلّ تأكيد من البيئة العربية ومن ثقافتها وذلك للأسباب التالية :

1. أن هذه اللغات حديثة نسبيا وأن التطوّر اللغويّ الذي عرفته اليونانية واللاتينية لم يكن ذا أهمّية إلاّ في الألف الأول قبل الميلاد، في حين أنّ كلمة "بربر" قديمة وقديمة جدّا تعود إلى ما قبل التاريخ وما جدّ في مرحلته الأخيرة من تحوّلات.

2. إنّ الحضارة الشرقية قديمة جدّا وأنّ مكتسباتها في الحرف والفلاحة وتربية الحيوانات وفي الكتابة ذات الحروف الأبجدية وغيرها انتقلت إلى الغرب وكانت الأصول الأولى لأقدم حضارتهم وهذا الانتقال للخبرات والمعارف والتقنيات والمنتوجات المادّية صاحبه أيضا انتقال لغويّ كبير، وبدأ علماء الغرب يعترفون بهذا ومنهم البحاثة الفرنسي "هيلير دو بار أنتون"، أستاذ اللغات الشرقية العربية القديمة الذي تحدث في كتابه (الأيتروسكيون في غربنا وأصولنا الفرنسية) عن التأثير اللغوي الواسع وما أدّى إليه من زيادة كبيرة في ثروتهم المعجمية.

3. إن كلمة (بربر) استعملت استعمالا واسعا ومتنوّعا ممّا يشهد بأصالتها ويدحض اعتبارها من الكلمات الدخيلة. كذلك فإنّ هذه الكلمات : البرّ، البراري، البربرة، المُبربر، وغيرها توحي بكل وضوح أنّها من جوّ صحراوي ومن بيئة بدوية قَبَليّة فيها ولدت وعنها عبّرت.

4. لقد تمكّن العلماء من التعرّف حتى الآن على عدد من المفردات القديمة دخلت إلى اللغة الانجليزية وبعض اللغات الأوروبية عن طريق اليونانية، وتبيّن بالبحث اللغوي المقارن أنّ هذه الكلمات أخذتها اليونانية من اللغات القديمة في العراق(75) مثل :

الكلمات الأكّدية	في الانكليزية
كُحْل (الغول، الكحول)	Alcohol
قلات (ملح القلي)	Alkali
مُشْكِينُ (فقير)	Meschino
كَرَشُ (كرز)	Cherry

وكما أخذت اليونانية هذه الكلمات وغيرها أخذت أيضا كلمة **"بربر"**

5. إنّ اليونانية وبقطع النظر عمّا يمكن أن تكون أضافته من أغراض أخرى لهذه الكلمة فإنّها ظلّت محتفظة بأحد معانيها الأصلية المعروفة في العربية وهو الغموض وعدم الإفصاح وما يشبه العُجمة عندنا.

6. يضاف إلى هذا أنّ الإخباريين والنسّابين والمؤرّخين المسلمين عامّة عندما تحدّثوا عن البربر تحدّثوا على أنهم كانوا مجموعة منتشرة بالشام تتسمّى بهذا الاسم وأنّهم تحت وقع أحداث معينة انتقلوا إلى بلاد المغرب واستوطنوه.

فقال ابن عبد الحكم : "وكان البربر بفلسطين وكان ملكهم جالوت فلمّا قتله داود عليه السلام خرج البربر متوجّهين إلى المغرب"[76]

وممّا رواه عبيد بن شرية (من صنعاء حسب ابن النديم) عن الملك الحيمري إفريقيس بن أبرهة من أنّه غزا المغرب ونقل "البربر من بلادهم فلسطين إلى مصر، إلى الساحل"[77].

وهذا أيضا من شأنه أن يفنّد مزاعم القائلين بأن كلمة "بربر" أصلها يوناني أو لاتيني. ويثبت، بما لا يدع مجالا للشكّ، أنّها من أرومة لغويّة عربيّة قديمة.

وهكذا نصل إلى أن كلمة "بربر" كلمة عربية صميمة عريقة في القدم مرتبطة بالتحولات المناخية في العصر الحجري الحديث وهي تعني: المهاجرين، ومن أكثر الكلمات دلالة على أصالة الانتماء الشرقي لبربر".

الهوامش:

1 Le Nouveau Dictionnaire orthographique et interprétatif de toute la langue grecause « Dimitraks » Edition 19

1. دائرة معارف بطرس البستاني مادة (بربر)
2. دائرة معارف بطرس البستاني مادة (بربر)
3. الحسن السائح : الحضارة المغربية عبر التاريخ الدار البيضاء 1975 ج1 ص 43
4. مروج الذهب ومعادن الجوهر – شرحه الدكتور مفيد محمد قميحة – دار الكتب العلمية – بيروت 1986 ج 1 ص 447
5. معجم البلدان – بيروت 1965 ج1 ص : 369
6. دائرة المعارف الإسلامية مادة (بربر) ج3 ص : 543
7. رحلة ابن بطوطة – دار الكتاب البناني – بلا تاريخ ص : 168
8. رحلة ابن بطوطة – المصدر نفسه ص : 169
9. مادة (برّ) ج1 ص:370
10. مادة (بربر) ج3 ص 543
11. مروج الذهب – المصدر المذكور سابقا ج 1 ص :106
12. مروج الذهب – المصدر نفسه ص : 107
13. معجم ما استعجم من أسماء البلدان والمواضع تحقيق مصطفى السقا مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر القاهرة 1945 ج1 ص 239
14. . صفة جزيرة العرب : تحقيق محمد بن علي الأكوع – مركز الدراسات والبحوث اليمني بصنعاء الطبعة الثالثة 1983 ص 93

15. عبد العزيز بن عبد الله: الموسوعة المغربية – معلمة الصحراء – منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية – الرباط 1976 – ص : 55
16. علال الفاسي: الحركات الاستقلالية في المغرب العربي – لجنة نشر تراث زعيم التحرر الطبعة الرابعة – الرباط 1980 ص : و
17. ياقوت الحموي: معجم البلدان- المصدر المذكور سابقا ج 5 ص : 283
18. عروبة البربر: محمد علي مادون- المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم والمركز العربي للتعريب والترجمة والتأليف والنشر- الطبعة الأولى- دمشق- 1992 ص 85.
19. علال الفاسي: الحركات الاستقلالية ... المصدر المذكور سابقا ص : و
20. ابن منظور : لسان العرب مادة (برّ) دار صادر ودار بيزوت 1955 ج 4 ص: 56
21. ابن منظور : لسان العرب – المصدر نفسه ص : 56
22. معجم متن اللغة للشيخ أحمد رضا بيروت 1958 ج1 ص 270
23. ابن منظور : لسان العرب مادة (برّ) المصدر المذكور سابقا ج4 ص : 56
24. الجوهري : الصحاح، تاج اللغة، وصحاح العربية. تحقيق أحمد عبد الغفار دار الكتاب العربي مصر 1377 هـج2 ص 588.
25. وصف إفريقيا – ترجمه عن الفرنسية محمد حجي ومحمد الأخضر طبعة دار المغرب الإسلامي بيروت 1983 ج1 ص 34
26. أبو زكرياء : كتاب السيرة وأخبار الأيمة – تحقيق عبد الرحمان أيوب الدار التونسية للنشر، تونس 1988 ص54.
27. مادة : بربر – المنجد في اللغة والأعلام – الطبعة العشرون – دار الشروق (المطبعة الكاثوليكية) بيروت 1969.
28. ابن منظور – لسان العرب – المصدر المذكور سابقا ج4 ص : 54

29. مادّة (برّ) ج1 ص 370 – طبعة المكتبة التجارية الكبرى بمصر – بلا تاريخ

30. السلاوي أحمد بن خالد الناصري : الاستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى – الدار البيضاء 1954 ج 1 ص54.

31. وصف إفريقيا ... المصدر المذكور سابقا ج1 ص : 34

32. وصف إفريقيا ... المصدر المذكور سابقا ج1 ص : 34

33. الجوهري : الصحاح، المصدر المذكور سابقا ج2 ص : 588

34. ابن منظور : لسان العرب مادة (برّ) النصرد المذكور سابقا ج4 ص : 55

35. ابن منظور : لسان العرب المصدر نفسه ص 55

36. ابن منظور : لسان العرب المصدر نفسه ص 55 - تاج العروس للزبيدي ج3 ص 38

37. الفيروز أبادي مجد الدين : القاموس المحيط – المكتبة التجارية الكبرى بمصر – بلا تاريخ – ج1 مادة (برّ) ص 370

38. ابن منظور : لسان العرب المصدر المذكور سابقا ص : 55 – 56

39. الزبيدي محي الدين أبو الفيض : تاج العروس من جوهر القاموس – المطبعة الهيرية. مصر 1306 هـ ج 3 ص 38

40. الزبيدي : تاج العروس – المصدر نفسسه ص : 39

41. مادة (برّ) ج1 ص 371

42. مادة (برّ) ج1 ص 371

43. ابن منظور : لسان العرب المصدر المذكور سابقا ج4 ص : 56

44. مادة (برّ) ج1 ص 370

45. رحلة ابن بطوطة : المصدر المذكور سابقا ص : 168

46. العزاوي المحامي عباس : عشائر العراق بغداد 1937 ج 1 ص : 280

47. ذكر هذه المجموعة أيضا فؤاد حمده : قلب جزيرة العرب ص 171 وعمر رضا كحاله : معجم قبائل العرب القديمة والحديثة ج1 ص 71

48. العزاوي : عشائر العراق – المصدر المذكور سابقا ج1 ص 278

49. ابن جنّي – أبو الفتح عثمان : الخصائص - تحقيق محمد علي النجار دار الكتب المصرية الطبعة الثانية. القاهرة 1955 ج2 ص 52.

50. ابن جنّي : الخصائص ... المصدر نفسه ص52

51. ابن جنّي : الخصائص ... المصدر نفسه ص 55

52. الأعلم الشنتمري: أشعار الشعراء السنة الجاهلين. دار الآفاق الجديدة الطبعة 3 بيروت 1983 ص67 و68

53. الهمداني أبو الحسين بن أحمد بن يعقوب : كتاب الأكليل – تحقيق الأب الكرملي. بغداد 1951 ج8 ص : 89

54. أبو فرج الأصبهاني : كتاب الأغاني – طبعة مصورة عن دار الكتب المصرية. القاهرة بلا تاريخ ج11 ص 155.

55. سيرة ابن هشام – تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد القاهر 1963 ج 1 ص : 44

56. صفة جزيرة العرب – المصدر المذكور سابقا ص 326

57. ذكر هذا هشام بن محمد الكلبي : انظر فتوح البلدان للبلاذري ص 231، والطبري ج1 ص 442 وعجز البيت أورده ابن خلدون : كتاب العبر ...ج6 ص 184 بهذه الصورة من ارض الضنك للعيش الخصيب.

58. ينسب هذا الرأي لمالك بن المرجل أورده ابن خلدون: كتاب العبر ج6 ص 148

59. ينسب للعباس بن مرداس السلمي : انظر كتاب السيرة وأخبار الأيمة ص 54

60. الحسن بن محمد الوزان الفاسي المعروف بليون الافريقي: وصف افريقيا. المصدر المذكور سابقا ج1 ص 34 – والسلاوي - الاستقصاء ج1 ص 54

61. ابن خلدون : (كتاب العبر وديوان المبتدإ والخبر)... دار الكتاب اللبناني للطباعة والنشر بيروت 1959 ج6 ص: 176

62. ابن خلدون : كتاب العرب ... المصدر نفسه ص: 170

63. نزوح البربر إلى شمال افريقيا – مجلة مجمع اللغة العربية بالقاهرة ماي 1984 ص107

64. مجلة مجمع اللغة العربية : المصدر نفسه ص 107

65. السيوطي عبد الرحمان جلال الدين : المزهر في علوم اللغة وأنواعها – شرحه محمد أحمد جاد المولى ومن معه – بلا تاريخ ومكان صدور ج1 ص : 223

66. الهَمْداني : صفة جزيرة العرب – المصدر المذكور سابقا ص: 248

67. المصدر نفسه ص: 248

68. المصدر نفسه ص: 248

69. المصدر نفسه ص: 248

70. المصدر نفسه ص: 248

71. ابن منظور: لسان العرب ... المصدر المذكور سابقا مادة "عجم"

72. ابن عبد البر أبو عمر يوسف القرطبي : القصد والأمم في التعريف بأصول أنساب العرب والعجم. مكتبة القدسي – القاهرة 1350 هـ ص: 65 وابن خلدون كتاب العبر ج6 ص: 186

73. د. عامر سليمان: التراث اللغوي – الوارد في (حضارة العراق) دار الحرية للطباعة، بغداد 1985 ج1 ص 312 و313

74. فتوح إفريقيا والأندلس: تحقيق عبد الله أنيس الطباع، بيروت 1964 ص: 27

75. كتاب التيجان في ملوك حمير: نشر مركز الدراسات والأبحاث اليمنية الطبعة 2 صنعاء 1979 ص: 421.